

الأسباب المعنوية للنصر



(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) (الأنفال/ 65).

يبدو أنَّهُ لا نقاش في تأثير الجانب المعنوي في تحقيق النصر سواء كان ذلك بطريقة غيبية لا نعلمها أم كان ذلك بطريقة يمكن تحليلها والاهتداء إلى حقيقتها وكيفية تأثير البعد المعنوي على الإنسان في حياته الطبيعية كالنصر والهزيمة وما شابه من الحالات. وسوف نستعرض فيما يأتي الأسباب المعنوية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. وسوف نحاول تحليل ما يسعفنا التحليل في فهمه، ونكتفي فيما سواه بعرضه والتسليم به لشهادة الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الإيمان:

الإيمان في اللغة كلمة تتضمن معاني عدّة هي الوثوق والتصديق والركون. ويبدو أن هذه الكلمة على الرغم من تعدّد استعمالاتها وتنوّعها إلا أنّها أصل لغوي واحد تعددت معانيه بتعدّد استعمالاته. فيقال: آمن فلان فهو آمن على نفسه، وآمن البلد، وآمن بال، وأتمنت زيدا على كذا. يقول المصطفوي في شرح هذه المفردة القرآنية: "والتحقيق أنّ الأصل الواحد في هذه المادة: هو الأمن والسكون ورفع الخوف والوحشة والاضطراب. يقال آمِنَ يَأْمِنُ أَمْنًا؛ أي اطمأنّ وزال عنه الخوف... والائتمان هو أخذه أمنيًا. والإيمان جعل نفسه أو غيره في الأمن والسكون. والإيمان به حصول السكون والطمأنينة به... (والَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) (الحديد/ 19)، أي اطمأنّوا وحصل لهم الأمن. وآمن بال؛ حصل له الاطمئنان والسكون بال المتعال، فهو مؤمن أي مطمئن".

وقد ورد في القرآن الكريم أكثر من آية تربط بين النصر وبين الإيمان، ولا يبدو أن ثمة حاجة لاستعراضها جميعاً؛ ولذلك نكتفي بالإشارة إلى بعضها، ومنها:

قال الله تعالى: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الرُّوم/ 47). من حيث المبدأ لا حق لأحد على الله ولا عنده عز وجل، فكل ما يفيض من الله يفيض على أساس الجود الكريم والتفضل، ولكن الله يكتب على نفسه بعض الأمور، فتجول إلى حق بالوعد الإلهي بالتفضل. وكفى بالوعد الإلهي وثيقة للتحقق: (وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) (الزُّمَر/ 20).

وفي آية أخرى يقول عز وجل بلسان الوعد: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) (النور/ 55). وفي هذه الآية وعد من الله أيضاً بالنصر ولو بكلمات: الاستخلاف، والأمن، والتمكين، فقد تقدّم أن التعبير القرآني عن النصر متعدد الصيغ.

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَفْقَهُونَ) (الأنفال/ 65). وهذه الآية أيضاً واضحة الدلالة على أن صفة الإيمان التي يتصف بها أصحاب رسول الله (ص) هي أحد الأسس التي تسقط العدد من الاعتبار وتعطي المؤمنين ميزة تجعل الواحد منهم يعادل عشرة من غيرهم.

أثر الإيمان في النصر:

والربط بين الإيمان والنصر من الأمور التي يمكن للإنسان أن يدركها. فالمؤمن يستند إلى ركن وثيق هو الله، ويمتاز بدافع قوي للتضحية لا يتوفر عند غيره من الناس، فهو كما تقول الآية الشريفة: (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ) (النساء/ 104). فاختلاف الرجاء والغاية التي يسعى الإنسان من أجلها تؤثر في الدافع الذي يدفع الإنسان إلى التضحية وبذل النفس من أجله. وخاصة إذا أخذنا بالاعتبار أن المؤمن يطلب إحدى الحسنين كما تقدّم فإن انتصر فيها ونعمت وإن استشهد فإنّه ينقلب إلى ربّ غفور، فهو يعتقد أن بين حالين كلاهما حسن، ومن ينظر إلى الأمور بهذه الطريقة لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً. والشرط الأساس في هذه الصفة حتى تؤثر أثرها أن تبقى اسماً ورسماً وأما إن تحولت إلى اسم خالٍ من المضمون فلا ينبغي توقّع تحقق الوعد الإلهي بالنصر، فالنصر المجاني غاية لا تدرك وبغية لا تُنال: "والحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعي منوط على العنوان لا غير؛ أي إن الرسل وهم عباد أرسلهم الله والمؤمنون وهو جند الله يعملون بأمره ويجاهدون في سبيله ما داموا على هذه النعت منصورون غالبون، وأما إذا لم يبق من الإيمان إلا اسمه ومن الانتساب إلا حديثه فلا ينبغي أن يرجى نصر ولا غلبة". وبالتالي قد يهزم المسلمون إذا فقدت أكثريةتهم الاتصاف بهذه الصفة حتى لو كان فيهم نبي من أنبياء الله تعالى: "هناك جانب آخر لعملية التغيير التي مارسها النبي (ص) وأصحابه الأطهار، هذه العملية حينما تلحظ بوصفها عملية متجسدة في جماعة من الناس وهم النبي والصحابة.. وبوصفها عملية قد واجهت تيارات اجتماعية مختلفة من حولها واشتبكت معها في ألوان من الصراع والنزاع العقائدي والاجتماعي والسياسي والعسكري... حينما تؤخذ العملية من هذه الزاوية تكون عملية بشرية، يكون هؤلاء أناساً كسائر الناس تتحكم فيهم إلى درجة كبيرة سنن التاريخ التي تتحكم في بقية الجماعات وفي بقية الفئات.. المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض أن ينتصروا، وخسروا المعركة في أحد حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض عليهم أن يخسروا المعركة... لا تخيلوا أن النصر حق إلهي لكم، وإنما النصر حق طبيعي لكم بقدر ما يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونياً لا تشريعياً".

العمل الصالح:

العمل الصالح السابق على النصر واللاحق له من العناصر المهمة في استنزال النصر. وقد بين الله هذا الأمر في عدد من الآيات. ونكتفي باستعراض أقل عدد ممكن من هذه الآيات لأن مفهوم الإيمان في

القرآن الكريم من المفاهيم المقرونة بالعمل الصالح في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) (النور/ 55). نلاحظ في هذه الآية أن النصر الذي يعد به الله تعالى مقيدٌ بصفتين هما الإيمان والعمل الصالح.

قال الله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِذَا مَا كَانُوا فِي الْأَرْضِ أَحْقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج/ 41-40). تتحدث الآية السابقة عن العمل الصالح السابق على النصر، وأمّا هاتان الآيتان فإنّهما تتحدّثان عن نصر الله لمن ينصره، ولكنهما تقيّدان ذلك بما بعد النصر وتشرطان في هؤلاء الذين يدعون الإيمان ويطلبون من الله النصر والتمكين أن يحافظوا على الصفات التي أهلّلتهم لنيل النصر، وإلا فلن ينال النصر من الله مَنْ يضيّع ما أمره الله به. ولو فرض وحصل مثل هذا الأمر فإنّ الله يهدّد هؤلاء بالاستبدال بمن هو أهلٌّ لأن يخصّه الله بنصره وتمكينه.

قال الله تعالى: (وَأَلَّوْا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّاهُمْ مَاءً غَدَقًا) (الجن/ 16).

قال الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْفِيلَ وَمَا أُزِيلَ إِلَّا لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَآكَلُوا مِنْ قَوْعِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) (المائدة/ 66)، تشترك هاتان الآيتان في نكتة واحدة هي الوعد بفيض النعم الإلهية على بعض الناس لو أنّهم استقاموا على الشريعة التي شرّعها الله لهم، وأقاموا حدود الكتب السماوية التي أتاها بها أنبياءهم. ووجه الربط بين هاتين الآيتين وبين النصر أنّ هذا الأخير نعمة من النعم الإلهية، وبناء على قاعدة "حكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد"، يمكن تعميم هذا الحكم من نعمة الأكل والشرب إلى غيرها من النعم كالنصر.

الصبر والثبات:

الربط بين الصبر والنصر من الأمور الواضحة التي يدركها الإنسان بالوجدان، فمن لا يصبر على تحمّل التضحيات لا يمكن أن ينال ما يريد. وقد التفت الإنسان بحسّه الفطريّ تجاربه العادية إلى مثل هذا الأمر، وامتلأ الشعر الحكميّ والأدب وكتب الأخلاق على وجه العموم بالحديث عن الصبر وتأثيره في وصول الإنسان إلى ما يبتغيه. يقول الشاعر و"إنّ من الشعر لحكمة": "لا بدّ دون الشهد من إبر النحل". ومن الحكم المشهورة في الأدبيات الإسلامية قولهم: "مَنْ صَبَرَ طَفَرَ فَاصْبِرْ تَطْفَر". وقد تعرّضت السندّة لهذا الربط وورد في بعض الأخبار والأحاديث ما يكشف عن الربط بين الأمرين، ومن ذلك: ما ورد عن أمير المؤمنين (ع): "لا يعدم الصبور الطفر، وإن طال به الزمن". وقد اشتهر على الألسن نسبة قولٍ إلى النبيّ (ص) هو: "إنما النصر صبر ساعة". ولكن يبدو بعد البحث والتحقيق أنّ النسبة غير صحيحة؛ ولكن لا تبعد صحّة المضمون. ومن الآيات التي تؤكّد هذا المعنى وتصدّقّه.

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران/ 200). وجه دلالة الآية على الربط بين الصبر والنصر أنّ الله يعد المؤمنين بالفلاح ويرجّيهم إيّاه إن هم حقّقوا الشرط وهو الصبر والثبات.

قال الله تعالى: (وَلَنَذِيبِلَنَّكُمْ بِرِشَاقٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقَمٍ مِنَ الْأُمُورِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَرَبُّ الشَّارِعَاتِ وَرَبُّ الصَّالِحِينَ) (البقرة/ 155). وردت هذه الآية في سياق الحديث عن الجهاد والقتال في سبيل الله، وختمت ببشارة الصابرين. والأقرب في مضمون هذه البشارة وأكثر انسجاماً مع سياق الآيات الكريمة أن يكون النصر والطفر ونيل ما يسعون في سبيل الحصول عليه: "أعاد ذكر الصابرين لبشرهم... فأمر تعالى نبيّه أوّلاً بتبشيرهم، ولم يذكر متعلّق البشارة لتفخيم أمره فإنّها من الله سبحانه فلا تكون إلاّ خيراً وجميلاً. وقد ضمنها ربّ العزّة".

قال ﷻ تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة/ 153). وهذه الآية كسابقتها تدعو إلى الاستعانة بالصبر لنيل المبتغيات، وهي عامّة ولو شكك أحدٌ في عمومها فإنّه يكفي للربط بين الصبر والنصر قوله تعالى: (وَصَابِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال/ 46)، ومن كان ﷻ معه ومحيطاً به إحاطة قیومیّة على حدّ تعبير أحد المفسّرين لن يكون إلا منتصراً.

التوكّدُ:

التوكّدُ على ﷻ تعالى من الفضائل الأخلاقية في منظومة القيم الأخلاقية الإسلامية. وهذا الأمر لا يخفى على من له أدنى اطلاع على الأخلاق الإسلامية. وما يعيننا هنا هو الكشف عن الصلة بين التوكّدُ على ﷻ وبين النصر.

يقول ﷻ عزّ وجلّ في كتابه الكريم: (وَمَنْ يَتَذَكَّرْ لِيَعْلَمِ اللَّهَ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ) (الطلاق/ 3). حسبه أي يكفيه ويغنيه عملاً ومن سواه. تقرّر هذه الآية مبدأً عامّاً هو أن التوكّدُ على ﷻ تعالى يجعل الإنسان في غنى عن سواه. ومن الأمور التي ينبغي التوكّدُ على ﷻ تعالى فيها وقطع الطمع في غيره الحرب والقتل وخاصّةً عندما يكون القتال في سبيل ﷻ.

قال ﷻ تعالى: (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيٌّ لِّلْهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَا تَتَوَكَّلْ الْيَهُودُ وَمِن دُونِهَا قَوْمُ مِثْرَةَ) (البقرة/ 122-123). ودلالة هاتين أوضحت من دلالة سابقتهما وذلك أن الآية الأولى منهما تتحدّث عن الاقتراب من الفشل وإطهار العجز، ثم تدعو المؤمنين إلى التوكّدُ على ﷻ. وتشير الآية الثانية إلى النصر الذي أحرزه المسلمون في بدرٍ، ولهذا السياق دلالة على الربط بين التوكّدُ والصبر.

قال ﷻ تعالى: (إِنَّ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ) (البقرة/ 160). هذه الآية تغلب المشهد ولكنها لا تعدم الدلالة على الربط بين الأمرين، فإنّها بدل أن تدعو إلى التوكّدُ طلباً للنصر، تدعو إلى التوكّدُ بالاعتماد على مبدأ عامٍّ وحقيقة كونية كبرى هي حقيقة أن مَنْ ينصره ﷻ فلن يُغلب، ومن يخذله ﷻ فلن يذوق طعم النصر، وتبني على هذه الحقيقة المؤكّدة الدعوة إلى فضيلة التوكّدُ والاعتماد على ﷻ تعالى.

وبكلمة عامّةٍ التوكّدُ على ﷻ يرفع منسوب الثقة ويشدّ العزيمة فمن يرّ ﷻ ظهيراً له ومعتمداً، يكنّ أقدر على اتّخاذ المواقف الحاسمة في الأوقات الصعبة. ومن المعلوم أن كثيراً من الهزائم التاريخية سببها ضعف في اتّخاذ القرار في الوقت المناسب، وكثيراً من الانتصارات سببها ارتفاع منسوب الثقة بالمستند والمعتمد، وأيّ رهانٍ يمكن أن يكون أقوى من الرهان على ﷻ والاستناد إلى ما عنده؟